حقائق أمام المسلمين

هذا ما يفعلون.. فماذا سنفعل؟

إذا كان من الحكم التى أوصى بها الرسل والحكماء، هذه الحكمة التى صيغت فى كلمتين «اعرف نفسك» فإن من الحكم أيضًا وفى وزن الحكمة السابقة ومفعولها تلك الحكمة التى عمل بها الرسل والحكماء، وتعلمناها نحن من تجارب الحياة، تلك الحكمة الأخرى التى صيغت.. أيضًا فى كلمتين «اعرف عدوك» أو «اعرف خصمك». ذلك لأن معرفتنا بأنفسنا وبقدرها يحمينا من الغرور ويدعونا إلى الاستكمال والتصحيح..

ومعرفتنا بخصومنا أو بأعدائنا توقفنا على قدر وزنهم وضعفهم أو قوتهم، وطرق تصرفاتهم، فنضعهم فى حجمهم المناسب، ونعاملهم على أساس معرفتنا بهم وبأحوالهم ونتقى شرورهم..

لذلك كان من الضرورى على كل إنسان مهما يكن وضعه، وعلى كل دولة.. الأخذ بهاتين الحكمتين، والحرص على تنفيذهما فى الحياة وإلا تخبط الإنسان فى غروره فهلك، أو تخطت الدولة فى غرورها فساقها، أو جرها غرورها إلى العار، أو تصرف الفرد أو الدولة مع خصمه على أساس معلومات خاطئة، فتمكن منه هذا الخصم وأصابه فى مقتله..

ومع أن هذا أشبه ما يكون بالأمر البدهى، إلا أننا كثيرًا ما نغفل عنه ونهمله، فتكون نتائج ذلك سيئة..

ونحن المسلمين فى أشد الحاجة الآن - على الأخص - إلى أن نعرف أنفسنا ووضعنا على حقيقته، ولانلجأ إلى طلاء حاضرنا بطلاء ماضينا العظيم، ونقر عينًا بذلك، وننام عن واقعنا المر.. كما أننا فى أشد الحاجة الآن، وعلى أخص الأخص - أن نعرف خصومنا، وما يدبروه لنا.. وما يرسموه وينفذوه من خطط للقضاء علينا وعلى ديننا.. وعلى حياتنا الإسلامية..

ومن أجل هذا عنيت بأن أدق الجرس ليتيقظ المسلمون، ويصحوا من رقدتهم، ويفيقوا من غفلتهم، ويتنبهوا لما أريد، وما يراد بهم.. وحرصت على تقديم بعض الشواهد القاطعة من التاريخ: القريب والبعيد، لنعرف خصومنا على حقيقتهم، ونعمل ما استطعنا على درء الأخطار عنا.. ولم أتجن فى سرد شاهد من الشواهد، بل تركت الحقائق تتحدث عنهم وبلسانهم أحيانًا..

ولأن الله يعلم حسن النية وصدقها معه فى الحفاظ على دينى وقومى، ساق لى دليلًا جديدًا، وتفاصيل جديدة «وطازة» تؤكد بكل قوة إصرار هؤلاء الذى سميناهم «خصومًا» دون أن نتجنى عليهم بل استعملنا كلمة مخففة، ولم نستعمل الكلمة المعبرة تمامًا وهى كلمة «أعداء».

إن هذا الذى سيق لى من تفاصيل لأضع ولو بعضها أمامكم، يعتبر القمة التى وصلوا إليها حتى الآن فى التخطيط والعمل ضد الإسلام والمسلمين...

وإذا كنت قد أشرت من قبل عن هذا الجديد، ووضعته مع بعض أحداث الماضى أمام القراء فى مجلة الأمة وقلت: هذا ما فعلوه فماذا فعلنا؟ «فإن هذه التفاصيل الجديدة التى وجدتها أخيرًا، تعتبر خطة مرعبة وجريئة كشفوا فيها اللثام عن نياتهم وخطتهم بوضوح كامل، حتى إنهم سموا مؤتمرهم الأخير الذى عقد فى كولوراد بأمريكا فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٧٨ «مؤتمر تنصير المسلمين».

وقد قرروا عقد هذا المؤتمر، وبهذا الاسم الصريح فى مؤتمرهم بلوزان فى سويسرا سنة ١٩٧٤- وكانوا من قبل يستحون أو يخافون من التصريح بأغراضهم، مع أنها كانت مكشوفة، فيسمون مؤتمراتهم باسم مؤتمرات التبشير:

وكانوا يعملون متفرقين، كل يعمل تبعًا لكنيسة: كاثوليكية أو بروتستانتية، ولكنهم أمام هدفهم المشترك خطوا خطوة جديدة فى تطوير عملهم، وقرروا أن تعمل الكنائس على اختلاف مذاهبها المتنافرة المتعادية إلى الحد الذى نرى صورة منه، بين الكاثوليك والبروتستانت فى «أيرلندا» قرروا أن تعمل هذه الكنائس كلها جبهة واحدة منظمة لتنصير المسلمين، وإدخال ٧٢٠ مليون مسلم فى أنحاء العالم إلى عبادة المسيح كما ذكروا فى مؤتمرهم هذا:

وقرروا ميزانية ضخمة لهذا العمل الجماعى الموحد، ذكروا أنها تزيد عن بليون دولار، وجمعوها بالفعل وأنشئوا جهازًا مركزيًّا للإشراف على هذا العمل.. وبدءوا عملهم فى قطر إسلامى على النحو الجديد كما ستعرف.. أعلنوا ذلك وأكثر منه - مما سأذكر بعضه - فى صراحة وصرامة، دون حياء أو خوف أو مداراة، فكما يقال فى أمثالنا الشعبية الحكيمة: «يافرعون ايش فرعنك؟ قال: لأنى لم أجد من يردنى»...

فقد عملوا طويلا تحت اسم «التبشير» مع أنه اسم شفاف، يشف عما وراءه، لكنه كان يدل على شىء من الحياء والمداراة، ولما طال عملهم وظهرت حقيقتهم أمام المسلمين: قادة ومقودين ولم يجدوا من يردعهم بحزم، كما لم يجدوا من يهتم بوضع خطط مقابلة لخططهم، ولا من يقدم عملا مضادا مدروسًا تجاه أعمالهم وجدوا الساحة خالية لهم، فلم يجدوا بأسًا من الصراحة والظهور بأثوابهم الحقيقية كما قال الشاعر:

خلا لك الجو فبيضى واصفرى ونقرى ما شئت أن تنقرى

ومع ذلك فهل ستجدى هذه الصراحة شيئًا فى تحريك المسلمين لحماية أنفسهم ودينهم وبلادهم؟ علم ذلك عند ربى.. وسيكشفه المستقبل، ويكون الحلم لنا أو علينا..

العلم أول مراحل التكليف والعمل:

وإذا كان العلم بالواجب، هو أول مراحل التكليف، والعمل به، فإن أول مراتب درء الأخطار هو الشعور بها، وإدراك مداها، ومن أية جهة تأتى: من الغرب أو من الشرق؟ فكما يقال: «الشعور بالظلم أول مراتب التحرر والنهوض».. ولا يمكن تجريد المسلمين عامة من العلم بالأخطار المحدقة بهم وبدينهم، إجمالا أو تفصيلا.. فالذى نذكره إنما هو مجرد تذكير لهم وحفز لهممهم، ووضع بعض المظاهر والخطط العدائية الجديدة لهم ولدينهم أمامهم، ليعملوا أكثر مما علموا من قبل: أن الذى يعرفونه جد لا هزل فيه، وأن عدوهم يعمل بجد ومثابرة فى حين هم غافلون أو متغافلون، كسالى... أو متكاسلون متواكلون...

إننا نعرف أن هدف هؤلاء ومن وراءهم ممن يعاونونهم ويباركون خطواتهم ويحتضنونها، ليس هو العضل لدينهم فحسب، ولكنه العمل للقضاء على قوة المسلمين الذاتية المنبعثة من دينهم وعقيدتهم، ليصير المسلمون فى النهاية لقمة سائغة سهلة للغرب أو الشرق فيستولى هذا أو ذاك عليهم، ويمتص خيرات بلادهم ويلقى لهم بالفتات، غير حاسب أى حساب لهم..

أمر غريب ومحزن:

والشىء الغريب المحزن حقًّا فى أمر هؤلاء الذين يوجهون كل حرابهم للإسلام وحده، وللمسلمين وحدهم، كأنه لا عدو لهم إلا الإسلام، ولا قوة أمامهم إلا قوة الإسلام، إن هناك عدوا مشتركًا شرسًا أو عدوا مبيدًا لكل الأديان حتى الوضعية منها التى تعترف بإله أو بآلهة.. وهو الإلحاد.. وعدم الاعتراف بوجود إله أو بأى دين يعترف بإله.

والإلحاد يسرى بين الناس فى الغرب والشرق والشمال والجنوب، ويعمل لاجتثاث المسيحية والإسلام والأديان كلها من الجذور.. تسنده قوة أو قوى شرسة، ومن هنا يأتى خطره على الأديان كلها.

وكان الواجب الطبيعى على أهل الأديان جميعًا أن يتكتلوا أمام هذا المبيد، ويحموا أنفسهم من آثاره السامة القاتلة، وذلك بقيادة رجال الدين والمهتمين به فى كل دين.. لو كانوا حقًّا خالصى النية فى الغيرة على الدين والاهتمام به وحده..

فكان من الغريب أن يركز المسيحيون الغربيون هجمتهم على الإسلام وحده، تاركين الإلحاد الذى يسرى كالنار فى أوساط أممهم وغيرها، ألم يخطر على بالهم أنهم حتى لو وصلوا - وهذا مستحيل - إلى أن يدخلوا المسلمين فى المسيحية، فإن من الممكن أن يسيطر الإلحاد على الذين دخلوا المسيحية، ويفرض نفسه عليهم، كما حصل فى أوربا الشرقية، وفى كوبا وغيرها من الدول الشيوعية؟

ألا يدركون أنهم بعملهم هذا كأنهم يتعاركون على اللحاف وعدوهم يشد البساط من تحت أرجلهم ويزلزل وجودهم؟

لقد كان من المحزن – أو لم يكن من الغريب المحزن، فقد صار كل شيء جائزًا إلى أن يقرر هؤلاء أن يوفروا جهودهم فى كل المناطق، ويركزوها على المسلمين حيث يوجدون: فلماذا؟

أليست الديانات الأخرى الوضعية التى تعبد بوذا أو عدة آلهة أو غيرها، أولى بجهودهم ليعرفوهم بعبادة الله؟ أليس الإلحاد أولى بأن يكثفوا جهودهم ضده، ويتحدوا فى ذلك معنا، ومع كل أصحاب الديانات؟ أليس وأليس.. من النواحى المعقولة التى كان يجب عليهم أن يدركوها ويعملوا بها؟

ولكن متى كان للعقل موضع مع الحقد؟ إن الحقد الكامن فى نفوسهم، والذى رضعوه مع لبان أمهاتهم، ضد الإسلام والمسلمين، هو الذى يستولى عليهم ويحركهم، وهو يعميهم عن كل شيء معقول.. وهو السبب فى تصرفاتهم وتصرفات الذين سبقوهم، وهو السبب فى كل ما رسموه من خطط فى هذا المؤتمر، وما رددوه من أفكار.

ماذا جاء فى هذا المؤتمر:

لن أستطيع أن أضع أمامك فى هذه العجالة كثيرًا من الأمور والأفكار الخطيرة التى دارت فى هذا المؤتمر الذى عقد فى ظل ورعاية الكنائس الأمريكية البروتستانتية فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٨١ فى مدينة.. «جلين أيرى» فى ولاية كولورادو، فى الولايات المتحدة. ولذلك أكتفى الآن بذكر بعض الأمور:

١ – قرر انعقاد هذا المؤتمر على هذا المستوى «مؤتمر لوزان» التبشيرى سنة ١٩٧٤ بسويسرا ومنذ ذلك الوقت بدأ الاستعداد له.

٢ – قُدم لهذا المؤتمر أربعون بحثًا معدًّا إعدادًا دقيقًا عن الإسلام، واللغة العربية، وحالات المسلمين تفصيليًّا فى كل قطر.. ونواحى قوتهم وضعفهم والطرق التى يمكن التأثير بها عليهم..

٣ – وضع لهذا المؤتمر مهمة خاصة محددة هى (مهمة تنصير المسلمين) حيث يكونون.

٤ – كل ما دار فى هذا المؤتمر كان لخدمة هذه المهمة وطريقة إنجازها..

٥ - انتقد المؤتمر الطرق التى اتبعتها الكنائس والمبشرون فى تنصير المسلمين من قبل، ورأوا أنها كانت بليدة ومتغطرسة، وقرروا اتباع سياسة تقوم على التواضع والتحبب لدى المسلمين، ومسايرتهم فى بيئاتهم، حتى فى طرق أكلهم وفى اجتماعاتهم حتى فى مساجدهم.. والالتجاء بذلك إلى التحايل للوصول إلى قلب المسلم، وإشعاره بأن ما يقدم له من مساعدات إنما هو تلبية لأمر يسوع المسيح، حتى يدخل فى قلبه حب المسيح أكثر من غيره، ويستجيب لهم بالتحول إلى النصرانية.

٦ - النساء هن المفتاح للتوغل بين المسلمين يقولون فى البند الثانى من طرق التبليغ «وأن نعمل من خلال هؤلاء النسوة اللآتى اشتهرن كقيادات دينية، وزعيمات اجتماعية، وأن نعرض بشكل مغر وفاتن البديل المسيحى من المغريات الشيطانية التى تهاجم بعنف، وتقهر النساء فى المجتمعات الإسلامية» هل هم رجال دين فعلا؟!:

٧ - وكما قرروا وعملوا على توحيد جهود الكنائس على اختلاف مذاهبها لتنصير المسلمين، أوصوا بزرع الكنائس بكثرة فى البلاد الإسلامية ومساعدتها، حتى تعمل هذه الكنائس لمهمة التنصير، وتظهر واجهة للمسيحية.

٨ - وخطوا خطوة جديدة فى توريط الكنائس المحلية والمسيحيين المحليين، حيث أدخلوهم فى العمل لبرامجهم فى تنصير المسلمين مع ما فى ذلك من خطورة بالغة ومزدوجة.

٩ - ولكى يطمئنوا المسيحيين المحليين فى كل قطر إسلامى على ارتياد هذا الخطر، نصحوهم بأن يعلموا، حتى إذا شعروا بوضع عراقيل من الحكومات المحلية فى طريق عملهم، لجئوا إلى الهيئات الدولية، ولجنة حقوق الإنسان، واعدين إياهم بمساعدتهم، والوقوف معهم للشوشرة والضغط على الحكومات المحلية وتخويفها!!

١٠ - ولإعداد المبشرين أو المنصرين على أعلى مستوى من معرفة العربية والإسلام والعلوم الضرورية لعملهم، قرروا إقامة معهد أطلقوا عليه «معهد زويمر» تكريمًا لهذا الزعيم التبشيرى، لتقديم الدراسات والتدريب

على تنصير المسلمين، وقد أنشئ فعلا فى كاليفورنيا الجنوبية تحت إدارة «دون ماك كورى».

١١ - كما أنهم أقاموا مركز استخبارات لجمع المعلومات، ولمد رجالهم بها، مع الاستعانة بوكالات الأنباء العالمية الغربية، ويكون لهذا المركز فروع فى العالم، كلما دعت الحاجة إلى ذلك..

١٢ - الاهتمام الخاص بالمسلمين الذين يفدون للغرب، ويقيمون فيه ولو بعض الوقت، لتقديم العون لهم، للدخول إلى تنصيرهم، نظرًا لأن هؤلاء يضعف ارتباطهم بعقيدتهم..

١٣ - بدءوا العمل سريعا، حيث قررت الفاتيكان افتتاح مركز فى كراتشى سمى «مركز مساعدة المرأة» تبعا لخطتهم فى التركيز على المرأة. وفى المركز: صالة لتعليم الحياكة والإبرة، والوسائل الصوتية والمرئية، وصالة للنوم، وأخرى للتعبد للأطفال والشباب، ومساعدة المرأة على اجتياز مصاعبها وأمراضها إلخ..

١٤ - كما قرر الفاتيكان افتتاح إذاعة له عالمية موجهة لأفريقيا من «دولة ليسوتو ».

١٥ - طبعوا حصيلة الأبحاث وما قيل فى المؤتمر فى كتاب من نحو ستمائة صفحة بعنوان «الإسلام والإنجيل» باللغة الإنجليزية ونشروه...

١٦ - كان مما قيل فى مقدمة الكتاب: «أن هذا المؤتمر (مؤتمر سنة ١٩٧٨) المنعقد بأمريكا الشمالية لتنصير المسلمين قد أصبح واحدًا من المؤتمرات التى تغير مجرى التاريخ».

١٧ - يقررون ويرددون فى مؤتمرهم هذا أن الخلافات التى تمزق المسلمين وحالتهم المعيشية جعلت الثمرة ناضجة تمامًا أمامهم لقطفها سريعًا، وإدخال ٧٢٠ مليون مسلم فى المسيحية ولذلك يجب مضاعفة النشاط وتركيزه على المسلمين لجنى الثمرة..

وأقف عند هذا مراعاة لحجم المقال.. وقد تكون لنا عودة..

وهدفى من هذا أن يعلم المسلمون مدى ما يدبر لهم ولدينهم للدفاع عنه،

وبالوسائل السلمية المناسبة لهذا التهجم، ويضطلع المسئولون والشعب المسلم - كل بما يستطيع - لدرء هذه الأخطار التى تجمعت من أجلها كنائس الغرب للهجوم على الإسلام صراحة.. وتنصير المسلمين... فهذا هو ما يفعلونه..

فماذا سنفعل؟

التعليم التبشيرى فى مصر:

وبهذه المناسبة أريد الآن أن أضع أمام القارئ زيادة مفصلة عن إرساليات التبشير فى مصر وما يتصل بالتعليم الأجنبى الذى قامت به هذه الإرساليات فيها، وكان له تأثيره فيما يتصل بثقافتنا ونظرتنا إلى ديننا ووطننا، مما نلمسه الآن فى مجرى حياتنا..

لقد وفدت على مصر إرساليات دينية تبشيرية مسيحية من مذاهب وجنسيات متعددة، وكانت تحرص أولا على إنشاء الكنيسة، ثم قيام المدرسة فيها، أو تابعة لها.. ويتولى رجال الدين فيها وحدهم، أو هم مع غيرهم عند الحاجة، مهمة التدريس والتوجيه فيها للدين أو المذهب الذى تعمل له..

ويسجل تاريخ هذه الإرساليات، أن العامل الدينى كان هو الدافع الرئيسى لها، فهى على اختلاف مذاهبها مسيحية، يجمعها كلها عامل مشترك وهو عداؤها للإسلام والمسلمين، وتوجيه كل طعناتهم إليه وإليهم.. وفى الوقت نفسه كانت من مذاهب كاثوليكية أو بروتستانتية، وكل إرسالية تعمل لمذهبها وجذب الآخرين من المسلمين أو الأقباط المصريين الأرثوذكس إليه..

أول إرسالية:

وكانت أول إرسالية وصلت إلى مصر فى القرن الثالث عشر، وهى من جماعة الرهبان الفرنسيسكان، وكانت رياستهم المباشرة فى مدينة «القدس»، وهذه كان يشرف على توجيهها «كلية الدعاة بروما» الكاثوليكية والجميع تحت رعاية البابا هناك وتوجيهه....

«وقد انتشروا فى الوجه القبلى فى أسيوط، وأبو تيج، وأخميم، وجرجا، والأقصر، وأسوان، وغير ذلك من المدن، وأنشئوا الكنائس والمدارس، واستقروا بالإسكندرية عام ١٥٧١، وفى عام ١٦٧٢ قاموا ببناء «دير سانت كاترين» فيها، ثم انتقلوا للقاهرة وبنوا لهم كنيسة فى مصر القديمة سنة ١٦٩٨، لكن استولى عليها أقباط مصر بعد ذلك، وفى عام ١٧٣٢ كان لهم بالقاهرة دير وكنيسة بالموسكى.

وكان أمرهم أولاً مقصورًا على بناء الأديرة والكنائس، ومن خلالها يبثون دعوتهم، ثم أخذوا فى إنشاء مدارس، تابعة للكنائس، بحجة تعليم أولاد الكاثوليك فى مصر.

وفى هذه المدارس بدءوا يعلمون لغتهم الإيطالية، كلغة أجنبية، فكانت أول لغة أجنبية تدرس فى مصر[١]، ثم اضمحل شأنها بعد ذلك، وحلت اللغة الفرنسية محلها.. حين عرفت اللغة الفرنسية، إبان حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨، واتجه «محمد على» إليها فى النهضة التعليمية، التى قام بها، بعد أن كان متجهًا فى بادئ الأمر إلى اللغة الإيطالية، وإرسال بعثاته الأولى إلى إيطاليا..

«فقد بذرت الحملة الفرنسية على مصر – مع قصر مدتها – بذور التجديد، ولفتت نظر مصر إلى الثقافة الغربية، وبدأت مصر تخرج من عزلتها السياسية والفكرية، وما إن بدأ القرن التاسع عشر وتولى محمد على زمام الأمور (يوليو ١٨٠٥)، حيث أقر الباب العالى اختيار زعماء مصر له، حتى بدأت مصر توفد بعثاتها التعليمية للخارج، وبدأ العالم الخارجى يزيد من بعثاته الثقافية والاقتصادية والدينية إلى مصر، وبدأت مصر ترحب بالأجانب.. ونزح معهم عدد

---

(١) مستمد من كتاب «تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين «تأليف جرجس سلامة – وهى رسالة نال به شهادة الماجستير من جامعة القاهرة فى يوليو ١٩٦٠ ومن منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٣م وإليه سيكون مرجعنا غالبًا فى هذه الناحية مع غيره من الكتب مثل «التعليم فى مصر أيام محمد على»، للدكتور أحمد عزت عبد الكريم، «وفى عصر إسماعيل» وقد لاحظت على هذه الرسالة أن صاحبها يقصر الأثر الدينى لهذه المدارس على المذهب الأرثوذكسى فحسب، دون أن يتعرض لهذا الأثر بالنسبة للإسلام.. وكأن كل هم هذه الإرساليات كان جذب الأرثوذكسى إلى الكاثوليكية أو البروتستانتية؟؟ ولعل له عذرًا، وذلك بالإضافة إلى مراجع أخرى..

من الإرساليات الدينية يبغون نشاطًا دينيًّا فى بلد كان الأجانب يعتبرونه إذ ذاك بكرًا[١]».

ويذكر الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أن «الإرساليات بدأت بإنشاء الكنائس، كل منها على مذهبه ثم رأوا أن يوسعوا من دائرة نشاطهم، فألحقوا بهذه الكنائس مدارس يقومون هم بالتدريس فيها لأطفال جاليتهم، ولمن يشاء، وبذلك بدأ فى مصر ما يسمى بالمدارس الأجنبية على وجهها المعروف لنا[٢]» وقد كان محمد على يشجع هذه المدارس هو وأبناؤه.. ويحضر الأمير حفلاتها، وكان «توفيق» راعيا لها ومنحوها أموالاً وهبات وأراضى كثيرة.

لاسيما بعد معاهدة: ١٨٤٠ التى قيدت سلطة محمد على وجعلته هو وذريته تحت رضاء الغرب ونفوذه لدى الباب العالى.

وحين اتجه محمد على إلى فرنسا وفدت منها البعثات التبشيرية الكاثوليكية الكثيرة، وصادف أن نابليون وضع نظامًا للتعليم فى فرنسا، حد فيه من نفوذ القسس فى هذه المدارس، فاتجهوا إلى مصر يؤدون فيها مهمتهم، «وازداد بذلك نشاط الإرساليات الكاثوليكية، وكان الذين فى مصر منهم يرسلون لاستقدام المزيد منها»، حتى إنه فى الفترة ما بين ١٨٤٤ - ١٩٤٣، وفدت على مصر ثلاث وعشرون إرسالية دينية نسائية، وحوالى هذا القدر من البعثات الرجالية.

وتنوعت الجاليات الكاثوليكية التى ترعى هذا التبشير فأصبحت سبع جاليات[٣]، ومن وراء هذه المدارس هيئات تبشيرية كاثوليكية، ترعى هذا النشاط فى جميع أنحاء العالم لجذب من يمكن جذبه إلى الكاثوليكية، «ومن هذه البعثات على سبيل المثال لا الحصر «الفرنسيسكان والجزويت والفرير والراعى الصالح[٤]، والقلب الأقدس وغيرها[٥]».

---

(١) التعليم الأجنبى المصدر السابق. والتعليم فى عصر محمد على ص ٦٧٠.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة. (٣) التعليم الأجنبى ص ٤٣.

(٤) افتتحت أول مدرسة كاثوليكية للبنات فى ٦ يناير ١٨٤٦ وقد ابتدأت حركة الراعى الصالح على يد وبال إحدى السيدات لبناء أديرة ومنازل، وقد بلغت أديرتها فى العالم عند نهاية القرن التاسع عشر. ١٤٠ ديرًا. وكان استقدام هذه الإرسالية بجهود من قنصل فرنسا والقاصد الرسولى فى مصر.

(٥) المصدر السابق ص ٤٠.

وكان من مهمات هذه المدارس «نشر الثقافة الفرنسية بجوار مهمتها الدينية الأصلية».

«وبذلك تنوعت المدارس الكاثوليكية بتعدد ونوع الإرساليات الكاثوليكية الوافدة إلى مصر، إذ تسابقت إلى إنشاء مدارس ملحقة بكنائسها، ويدرس فيها رجال من الكاثوليك، ويغلب على هذه المدارس الطابع الديني[١]».

دور البروتستانت الإنجليز:

ولما كانت مصر قد صارت فى أعين الغربيين أرضًا بكرًا لنشاطهم الدينى والسياسى والاقتصادى، ولقى التبشير الكاثوليكى فيها نجاحًا، فقد تطلع رجال المذهب البروتستانتى فى إنجلترا إلى أن ينزلوا هذا الميدان أخيرًا، فكانت أول إرسالية لهم سنة ١٨١٥، لكن لم يكن لهم على العموم نشاط يذكر بجانب الكاثوليك، حتى احتل الإنجليز مصر عام ١٨٨٢[٢].

كما بدأت الإرساليات الأمريكية البروتستانتية أيضًا فى وقت متأخر، ولم يكن لأمريكا جالية كبيرة فى مصر، حتى يقال: إن المدارس أنشئت لابنائها.. وإنما اتخذت المدارس وسيلة لنشر المذهب البروتستانتى عن طريق التلاميذ وأولياء أمورهم وعقد صلات معهم.

وقد افتتحت الإرسالية أول مدرسة للبنين ومدرسة للبنات بالقاهرة سنة ١٨٦٠م، وقبل ذلك سنة ١٨٥٦ فعلت مثل ذلك فى الإسكندرية..

ولكنها اتجهت بنشاطها للوجه القبلى فى مدن وقرى الصعيد، حتى بلغت هذه المدارس سنة ١٨٩٦ حوالى ١٦٨ «مائة وثمانى وستين مدرسة»، منها ١٣٣ للبنين، ٣٥ للبنات، وبلغ عدد التلاميذ الملتحقين بها ١١٠١٤ تلميذًا وتلميذة.. وبلغت

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤.

(٢) كانت هناك مدرستان إنجليزيتان بالإسكندرية عند الاحتلال فى حين توقفت المدرستان اللتان فى القاهرة.. وبعد الاحتلال بلغ عدد المدارس الكبيرة الرئيسية ١٨ مدرسة فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس، وكذلك زاد عدد مدارس الإرساليات الكاثوليكية. فمثلًا هيئة الفرير كان عدد مدارسها قبل الاحتلال خمس مدارس وأنشأت ٣٠ مدرسة بعد الإحتلال.

سنة ١٩٠٠م ١٨٦ مدرسة منتشرة فى أنحاء القطر. وكانت هذه المدارس جميعها تعمل فى أوساط المسلمين والأقباط، لتنصيرهم، أو لتحويل الأقباط الأرثوذكس إلى الكثلكة أو البروتستانتية، وقد أخذ تعداد الذين اعتنقوا البروتستانتية من الأقباط يزداد، ففى ١٨٩٥ كان ٤,٥٥٤، ثم انتهى فى تعداد ١٩٤٧ إلى ٩٠,٩٦٧، وكذلك زاد عدد من تكثلك من الأقباط، حتى بلغ ٨٠,١٨٠ فى تعداد سنة ١٩٤٧[١].

وكان مما يشجع الناس على الدخول فى هذه المدارس الأجنبية أن طلابها كانوا يعفون من الجيش ومن الاشتغال بإقامة السكك الحديدية والطرق العامة (السخرة)..

كذلك كان للأقسام الداخلية بها عامل جذب كبير للبعيدين عنها، لدخولها سواء من مصر أو من البلاد العربية.

* * *

وإذا كانت هذه المدارس كلها على اختلاف مذاهبها وجنسياتها، قد تلاقت عند هدف واحد أولا، وهو الهدف الدينى الموجه لإضعاف الإسلام، والمذهب الأرثوذكسى القبطى فى مصر، فقد تلاقت أيضًا على إضعاف اللغة العربية، والروح القومية، وإيجاد طبقة متميزة من خريجيها المثقفين العارفين باللغات الأجنبية.. والذين كانوا يعدون أنفسهم فوق مستوى الشعب، وينظرون إليه نظرة متعالية، ويعيشون فى جو الثقافة والتقاليد الغربية، وكأنهم لا يشعرون بالانتماء إلى شعب عربى مسلم.. بل ويفخرون بذلك وبلكنتهم الإنجليزية أو الفرنسية إلخ إلا من عصم الله. وساعد على هذا أن المدارس الإنجليزية بالذات، اتخذت لها سياسة خاصة فى طلابها وانتقائهم من طبقات معينة، ورفعت مصروفاتها إلى حد لا يسمح بدخولها إلا لطبقات موسرة، خاصة من ذوى النفوذ الاقتصادى أو السياسى، أو ذوى العلاقات الخاصة بالرعايا البريطانيين، مثل المدرسة الإنجليزية فى مصر الجديدة (مدارس النصر الآن)، ومثل كليتى

(١) المصدر السابق ص٦٧ وكان الإنجليز يحتضنون التبشير من أى مذهب لأن هدف الجميع منه واحد وهو محل ترحيب من المستعمر وتشجيع..

فكتوريا بالإسكندرية والمعادى.. حيث كان يفد إلى أقسامها الداخلية الأمراء وذو الثراء والنفوذ من العالم العربى ومن دول أفريقيا..

وقد أنتجت هذه الخطة طبقة متميزة من المثقفين فى العالم العربى، كانت تحظى بعطف ورعاية النفوذ البريطانى.. وكذلك فعلت مدارس الإرساليات الأخرى، وإن عملت على التخفيف فى مصروفاتها ومنح مجانية قليلة لبعض طلابها، إلا أن خريجيها كذلك كانوا يعدون أنفسهم بما تلقوه فى مدارسهم طبقة متميزة عن باقى أفراد الشعب وربما قلدوا بعض علية القوم من الأسرة المالكة وقت ذلك، ومن يدور فى فلكها فى النظرة إلى الشعب وأمانيه نظرة غير سليمة على أبسط تعبير[١].

ولا يعنى هذا جميع الخريجين، بل كان فيهم من ظل يشعر بالانتماء القوى لوطنه، وبقى فيه هذا الانتماء والولاء له..

ولقد وضعت لهذه المدارس مناهج وخطط تشكل طلابها من شبابنا وغيرهم تشكيلا يتفق وثقافة البلاد التى تتبعها هذه المدارس، وفيها كل شىء يغذى هذه الثقافة أو تلك، إلا ثقافتنا نحن، ثقافة البلد الذى يعلمون فيه ومصلحته..

«فقد كانت بعض الكتب الدراسية التى تفرضها هذه المدارس على طلابها موضوعة بطريقة استعمارية لا تتمشى مع الاتجاهات الوطنية المصرية.. وكانت الكتب التى تعطى تلاميذ هذا النوع من التعليم، تشمل تمجيدًا للدولة التى تتبعها المدارس، فى حين تعمل على الغض من مصر وشعبها ودينها وتاريخها، وبث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وتمجيد الاستعمار والمستعمرين».

«ولهذا نجد خريجى معظم هذه المدارس لا يعرفون عن تاريخ بلادهم

---

(١) يقول مسيول. شاتليه «كما فى مقدمه له منشورة فى الغارة «لاشك أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية فبنشرها هذه اللغات يتحكك الإسلام بصحف أوربا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامى مادى، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها».

وجغرافيتها شيئًا، فى الوقت الذى يعرفون فيه تفاصيل كافية عن تاريخ الدولة التى تتبعها هذه المدرسة[١]».

وكان لهذا بلا شك أثره القوى فى هؤلاء الخريجين وفى الأسر التى يكونونها، والتى تفرز من الشباب والشابات من ينتمى إلى ثقافة الوالد، ولا يعير اهتمامًا لثقافة بلده، اللهم إلا النادر الذى له ظروفه الطيبة نحو بلده..

ولقد ساعد على اتجاه هذه المدارس الأجنبية هذا الاتجاه استقلالها عن الدولة المصرية فى شئونها، وتمتعها بامتيازات خاصة، تعفيها من هذا الإشراف، حتى لو أرادت مصر فى ذلك الحين، لا سيما المدارس الإنجليزية التى كانت تحت حماية ورعاية المندوب السامى البريطانى أوالسفير وبرياسته، مع من يختارهم من المطارنة ونواب قادة الجيوش الحربية فى مصر وغيرهم.

وأقرب مثل لهذا: المدرسة الإنجليزية بمصر الجديدة (مدرسة النصر الآن)؛ وكانت اللغة العربية فى هذه المدارس غريبة ومهملة، وأكثر منها إهمالاً: التعليم الإسلامى والتاريخ الإسلامى والوطنى الصحيح..

ولا شك إنه كانت هناك تطلعات ورغبات من الجانب المصرى لتحسين هذا الوضع، ولكنها ذهبت أدراج الرياح فى ظل الامتيازات الأجنبية والسلطة الاستعمارية.

أما حين ملكت مصر إرادتها فقد تدخلت الدولة بما يمليه عليها واجبها نحو ثقافتها وبلدها، وبذلت محاولات وأصدرت قوانين وأنظمة لوضع هذه المدارس تحت إشرافها، حتى صدر قرار بتأميم بعضها ووضعه تحت الإشراف لوزارة

---

(١) يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «عصر إسماعيل الجزء الأول الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٢٠٥ تحت عنوان المدارس الأوربية: «كثر عدد المدارس الأوربية التى فتحتها البعثات الدينية للبنين والبنات، فبلغ عددها فى عهد إسماعيل ٧٠ مدرسة، كما دلت إحصائيات مصر سنة ١٨٧٣، ولم تنتشر فى أى عهد بمثل ما كثرت فى عهده، وقد خرجت عددًا كبيرًا من رجال الأعمال والمهن وموظفى الحكومة وخاصة موظفى البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجم القنصليات والمحاكم المختلطة ونال كثير منهم الحمايات الأجنبية بواسطة القناصل، فصاروا فى حكم الأجانب فى انتمائهم للدول الأجنبية وميولهم إليها- وعدم خضوعهم للنظم الأهلية والقضائية والإدارية.

التربية.. فى حين بقيت مدارس كثيرة تؤدى رسالتها حتى الآن، بجانب أدائها لما تفرضه عليها وزارة التربية.. ولكن يبقى الطابع الذى تطبع به المدرسة تلاميذها.. والكتب المستوردة التى تدرس لهم، والتى تخرج أحيانًا عن ديننا وتقاليدنا..

إن هذه المدارس بلا شك قد قدمت للبلاد متعلمين أتقنوا عدة لغات أوربية، وأمكن الانتفاع بعلمهم فى بعض الميادين، ولكن مما لا شك فيه كذلك أن هؤلاء كان معظمهم غريبًا عن ثقافة بلده، وربما كان حربًا عليها وعاملًا كبيرًا فى سيادة الثقافة والتقاليد الغريبة فى البلاد، وانتزاع الكثير من الشعب من أحضان ثقافتهم الأصلية، لاسيما وقد أتيح لبعض هؤلاء أن يحكموا مصر ويتحكموا فى مسيرتها، ومن لم يتح له منهم الوصول إلى المراكز العامة القيادية عمل فى دائرته بمقتضى ثقافته الغربية أو الغريبة.

وقد يكون هؤلاء فى أجهزة الإعلام أو فى غيرها من الأجهزة المؤثرة، فيعملون، دون أن يكون لهم شعور بالولاء لدينهم أو ثقافتهم، مما أظهر كثيرًا من الشروخ والتداعى فى بنياننا الأصيل.[١] ولايزال. ومما يؤسف له أن هذه المدارس ازدهرت وتزدهر كلما ضعف التعليم الذى تقوم به الدولة فى مدارسها، لاسيما بعد مجانية التعليم التى لم تحط بضمانات، تجعل من تطبيق هذا المبدأ الطيب، نتيجة معقولة وطيبة، وتجعل للاستثمارات أو الاعتمادات الضخمة للتعليم عائدًا محمودًا يلمسه الشعب ويحمده. ويدفعه إلى تسليم أولاده له وهو مطمئن..

إننا مع الأسف نسير أسرى شعارات، دون تعمق أو عمل لتوجيه السفينة إلى المصلحة الحقيقية للبلاد، وكل العقلاء والباحثين يقررون ذلك على المستويات العالية.. ولكننا نسير فى واد، والمعقول فى واد آخر: «إن إقبال كل من يملك مالًا حتى من الحرفيين والعمال الآن على إدخال أولادهم المدارس الخاصة، وبمصروفات وتكاليف باهظة، يعطى مؤشرًا قويًا، وصوتًا مدويا، على ضرورة إجراء عملية جراحية للنظام التعليمى الذى تسير عليه الدولة. حتى يسير فى

---

(١) ولعل القارئ يلمس ذلك يمامًا من الواقع الذى نعيشه ويستطيع أن يقدم الأمثلة والأدلة على مدى التغريب الذى فعلته هذه المدارس فى قطاع كبير من العشب بالإضافة إلى العوامل أو المعاول الأخرى التى سنشير إليها والتى عملت عملها فى قطاع آخر كبير من الشعب..

الاتجاه الصحيح، وتعود للشعب ثقته فيه.

إن بعض المصريين قد أقبلوا على إنشاء مدارس خاصة تعنى باللغات، على نمط المدارس الأجنبية تحت وطأة عدم الثقة الكاملة بمدارس الدولة، مع حاجة السوق بعد الانفتاح إلى من يتقن اللغات فأقبل الآباء على هذه المدارس إقبالاً شديدًا، حتى أصبح دخول طفل فى مدرسة حضانة من هذا النوع يحتاج أحيانًا إلى تدخل وزير بأمر أو شفاعة!!

ولا أدرى إلى أين نحن مسوقون، وأحيانًا أدرى، فأغمض عينى من تخيل المصير وأدعو الله لنا بحسن البصيرة، والنجاة من المهالك..

openkandl.com